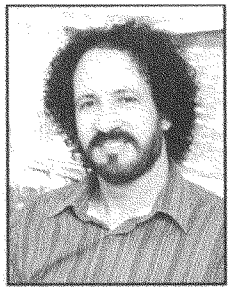

نبيل منصر
كاتب من المغرب.

طيور تبكي كالأرامل في أعلى الشرفة

طيفُ امرأة

نَزعْتِ جلدي وانزلقتِ بين تضاعيف الماء. ملابسي حَلَّقَ بها طائرٌ غريب انبثقَ فجأةً من دغل النوم، تاركًا بيضةً زرقاءَ على سرير اليقظة. أنظري كيف أسقطَ كوبَ الماء وتركَ خدوشًا حيّةً على زجاج النَّفَس. تلك الليلة جئتُ بيديك من الغابة التي أتلفَها البرق، لأقوى على رتق العناصر. لكنّ ذراعَك الحبيبة انزلقتْ بين تضاعيف المرآة، ساحبةً خلفها امرأةً عارية.

تذكّرتُ الطائر، فضرب برقٌ جديدٌ، تراءتْ لي ـ في طيّاته ـ ثيابٌ تشقّ السماءَ بأجنحة ملائكة. لم أتوارَ، بل سحبتُ يدي من تجويف الذراع، وتناولتُ حفنةً من الهواء، لأطعم طيفَك الذي ظلَّ ماثلًا يُحدّق بي مثل حيوانٍ أليف. قلتُ أيها الطيف، لا تلُمني إذا أوقدتُ شمعةً أسفلَ الماء، وركضتُ خلفكَ في الدروب المرجانيّة.

لحظات فيض

مَن منّا، في لحظات فيضه، لم تكن له رغبات؟

أنا مثلًا رغبتُ في ناقوسٍ عظيم أقرعه، فيحلّ الليلُ مُمتطيًا دابّته الخضراء.

رغبتُ في لغةٍ قديمةٍ أحرّك رمادَها، فينبعث طائرٌ كبيرٌ يتلاطم جناحاه بهواء الغرفة.

رغبتُ في تفّاحة الفردوس أفلقُها، فيجري وادٍ تهيم فيه حسناوات.

رغبتُ في بابٍ سرّيّ أدفعه، فيدفقُ شعبٌ بمطارق تنهال على سلاسل كبيرة، كانتْ تشدُّ أقدامَه إلى حجرٍ كبير.

مَن منّا، في لحظات فيضه، لم يرَ الليلَ الخُرافيّ يحُلُّ، والطائرَ الكبير، وقد أعياه الخبطُ، يتضاءل ويقف فجأةً جنبَ المصباح، يُحدّق بيديَّ وهما تعكفان كعجوز على نولٍ سداهُ مِن ظلمة الحياة؟

رغبتُ أكثر.

لكني لم أعثرْ على الباب في مكانه. والجدران، التي كنتُ أقولُ إنّها انهارت، فجأةً أصبحتْ لامرئيّة.

وحدَها أصواتٌ مخنوقة، تبدو طالعة من جوف صحراء، تدلُّ على أنّ ثمّة بابًا بمكانٍ بعيد.

أنا أكتبُ الآن. لكنْ ما مِن هُدهُدٍ يأتي من أرض سبأ، يدلُّني على الباب، ويدلّ البابَ عليَّ.

أيّتها السمكة

مِن جوفي، يَدّفقُ نهرٌ وجدّتُكِ تسبحين فيه. كيف تسلّلتِ مِن بين الأشجار لتكوني سمكتي الكبيرة التي أُمتّعُ عينيّ برقصتها الغاوية، وأنا أقتعدُ صخرةً على الشطّ؟

جناحان كبيران يَعبُران بتوتّر كُلّما طفا الثعبان على السطح. في الشتاء، كما في الصيف، أختلي بي، وأكونُ صيّادَ نفسي في المياه العميقة. عندما لا أعثر عليكِ، أشُكُّ حربتي في الهواء، فترتدّ نايًا يسعى بأفواهه السبعة.

أصفّرُ لك صفيرًا حزينًا، فيتلألأُ قلبُك، وتدّفقُ دماءٌ حارّةٌ في الماء وبين أوراق العشب. تموّجات دائريّة تتلاشى في قرارها كلمةٌ انزلقتْ من فمي على حين غرّة.

ما ربَّيْتُه في أعماقي طوال فصولٍ، وجدتُهُ، فجأةً، يتحرّرُ من بين يديّ مثلَ صقر. لا أعرفُ بأيِّ شجرةٍ، على أيِّ جبلٍ، في أيِّ انجرافٍ يمكنُ أنْ أعثرَ على بيضه حيث أُخبِّئُ أكبرَ المعاني.

الهواءُ، في هذا الوقت، أشفُّ من السيف. لذلك أعبرُ برويّةٍ كلَّ هذه الأنهار المتلألئة أمامي، مستشعرًا دَفقَ الدم الذي يزيدُكِ انحرافًا، أيّتها السمكة.

الباب

يدايَ تنفردان بصمتِ الباب. أمرّرُ عليه أصابعي كما لو كان طائرًا هبط من السماء، مستشعرًا دبيبَ الزمن الذي سال مرّةً في لوحة. الماءُ صخرةٌ مغلقة في الأيام الخوالي: قال صوتٌ. لكنَّ الفنّان عرف كيف يُحدِثُ ثغرةً. لم يدخلِ الهواءُ مُحمَّلًا بالغبار الأول، بل أطْلَتِ المرأةُ بشَعرها الملتهب، وترقرَقَ الوقتُ من ظلمات بعيدة. أنوارُ مَن تتلألأ عند مدخل المدينة، حيث يقف حارسان بحربتهما الطويلة، وقبّعتهما المُجوَّفة التي تكتنِزُ مَطرَةَ العصور؟

محاقن القدر

الغدُ غَرسَ نابَه بكفّي. اندلقتِ الكأسُ ولم تسقط تمامًا. شمس صغيرة أضاءت وجهَ الثعبان المُتسلّل بين الغيم. إذا عثرتِ عليَّ مُلقًى على الأرض، فاجعلي رأسي ينظر إلى الأفق. فأنا أنتظر أن تنكسرَ جرارٌ كثيرة بقلب السماء، وتخرج الساحرة ببرقِها الوامض من بعيد. أشعرُ بعطف على الدم الجاثم على الحَجر مثل فَراش. وألتفتُ إلى الطائر الأعمى المُرفرف أمامي بامتنان طفل. كَمْ أتألّم لأثبتَ جدارتي بالأيّام. أيتها المحاقنُ، التي يُسمّيها الشاعرُ قدَرًا، شُكّي إبرتَكِ في الظهر؛ فقدْ علّلْتُ النفس بدَفن رأسي في رَمْلِ يدي، والمشي أطول وقت ممكن.

نحّات الملك

الصخرة الكبيرة دَحْرجَها عبيدٌ، فاستوت كالوحش في ساحة المدينة. الملكُ أيقظ النحّات. بعث إلى نافذته المفتوحة بنَسره الذي أضرم نارًا في الهواء. ضاءت الغرفة، وكشفتْ عن سلسلة ذهبيّة تتأرجح بكتابها تحت الجناح المفرود.

هبَّ النحّاتُ لكلمات الغيب. خرج من حينه ولم يعُد.

شتاءاتٌ تعاقبتْ على الأرض، كان النسرُ خلالها دائمًا يفجأ النّحاتَ عاكفًا، ليلَ نهار، على الصخرة، يدعك، يكسر، يثقب، فاتحًا للهواء مسالكَ، وللنار فجواتٍ، وللظلال مَراقِد، حتّى استوتْ بينَ يديْه امرأة أفعوانيّة، دقيقة العُنق، نافرة النهد، طويلة الساقيْن، متأهّبة لرميةٍ قاتلة، من قوسٍ يتوتّر بين يديها جهةَ الشرق.

نسرُ الملك صار يسهرُ الليلَ على كتفي المرأة المُضيئتين. أما المدينة فأغدقتْ عليها ألقابًا وهبات.

أقلّ ما يُشاعُ عنّي

أنا اليوم أوْهى من نملة تجُرُّ الحياة كجرادة أكبرَ من بيتها.

أقلّ ما يُشاعُ عنّي أني خسرْتُ في الرهان ثورًا مجنّحًا، ومالتْ في بحيرتي ظلالٌ بلا أجسادٍ تمشي على الأرض.

في لحظات العطالة أكسر فخّار الأيّام الأولى، لِأصنع طمْيًا يَصلُحُ لِعبَثِ اليَديْن.

المغرب